

الخطاب الإصلاحي

في فكر جمعية العلماء المسلمين الجزائريين

أ / ارفيس علي

مخبر حوار الحضارات والعولمة

جامعة الحاج لخضر — باتنة 1 —

الملخص:

إن جمعية العلماء المسلمين قد أدركت بوضوح أن السبب في بقاء الاستعمار جائئاً على صدر الأمة دهرًا طويلاً، يكمن فيما يسمى بالقابلية للاستعمار، والتي مردّها إلى ما طرأ على الشعب من انحراف في عقيدته وفكره، وأن العلاج الصحيح يتمثل في إصلاح عقيدة الشعب الجزائري، وتنقيتها من الخرافات والبدع، والتركيز على التربية والتعليم من خلال إنشاء المدارس، وحثّ الأمة وتشجيعها على إرسال أبنائها إلى مدارسها، ومحاربة الجهل والانحراف الأخلاقي بتثقيف العقول، والرجوع بها إلى القرآن والسنة الصحيحة.

الكلمات الافتتاحية: جمعية العلماء، الخطاب، العقيدة، التربية، الاجتماع، السياسة

The Association of Muslim Scholars has clearly realized that the problem in the survival of colonialism has been on the nation's chest for a long time. It lies in the so-called colonialism, which is due to the perversion of the faith and thought of the people. The correct treatment is to reform the doctrine of the Algerian people Of the myths and innovations, and focus on education through the establishment of schools, and urged the nation and encourage them to send their children to schools, and fight ignorance and moral deviation by educating the minds, and return to the Quran and the Sunnah.

Opening words: Association of Scholars, Speech, Creed, Education, Sociology, Politics

إن أول ما تسعى إليه الدول الناهضة، هو توجيه عنايتها الكاملة لتربية مواطنيها ونشر الوعي بينهم، فالمواطن الصالح هو رأس المال الحقيقي في العملية التنموية بكل أبعادها الاجتماعية والثقافية والاقتصادية والسياسية. ولقد مثل موضوع المواطنة جزءاً من مشكلة الهوية والمفاهيم التي ارتبطت بها منذ بدء احتكاكنا الفكري والثقافي والسياسي والعسكري بالغرب في القرن الماضي، وإذا كانت المسألة قد حسمت على صعيد الواقع منذ أن تمزقت الدولة العثمانية وتحولت أشلاؤها العربية وغيرها إلى دول وحكومات، فإن المسألة لم تنته على المستوى الفكري والثقافي، بل ظلت سؤالاً كبيراً يطرح بشكل أو بآخر. ومن المتعارف عليه أن وحدة الوطن من عوامل وحدة الأمة وتماسكها ومن عناصر قوتها، ولذلك خطط الاستعمار لتجزئة الوطن العربي الإسلامي، ولجعله أوطاناً تفصل بينها الحدود التي تحول دون هذه الوحدة، وإذا ما تحدثنا عن هذا الاستعمار، لا بد أن نشير إلى الاستعمار الفرنسي الذي حاول بكل ما أوتي من قوة وحقد أن يقتلع الجزائر من جذورها التاريخية والحضارية، وأن يجعلها امتداداً طبيعياً لفرنسا ليس جغرافياً فقط، بل تاريخياً وثقافياً واجتماعياً ودينيًا وحضارياً، ويقدر ما كان للجزائر أعلامها في مقاومة جيوش الاحتلال وملاحقته، وأعلامها في النضال السياسي وفضح أكاذيبه، كان للجزائر أعلامها في المجال الفكري والثقافي مثل جمعية العلماء المسلمين الجزائريين التي تصدت لمشاريع الاحتلال الثقافية والفكرية، وفضحت دسائس الاستعمار وكشفت خبايا مشروعه الثقافي الاستعماري، وأحييت فكرة الوطن الجزائري بعد أن ظن كثيرون أن فرنسا قد نجحت في جعل الجزائر مقاطعة فرنسية، هذا ما يجعلنا نتساءل: ما الخطاب الذي تبنته جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في مواجهة المشروع الاستعماري؟ وكيف حافظت من خلال هذا الخطاب على هوية المجتمع الجزائري ومقومات الشخصية الوطنية؟

لقد أحدث المشروع الاستعماري الفرنسي في الجزائر جروحاً عميقة في بناء المجتمع الجزائري، حيث عمل على طمس هوية الجزائريين الوطنية، وضرب وحدة المجتمع الجزائري، واتهج سياسة تبشيرية هدفها القضاء على دينه ومعتقداته الإسلامي، ومحو اللغة العربية، وطمس الثقافة العربية والإسلامية.

وبقي الاستعمار الفرنسي على هذا النهج، إلى أن حاول أن يحتفل بمرور قرن كامل على احتلاله للجزائر في جويلية من عام 1930، وبهذه المناسبة أقامت فرنسا احتفالات في الجزائر دامت ستة أشهر كاملة، غير أنها لم تدم سوى شهرين فقط نظراً: "لمقاطعة الشعب الجزائري لها وغضبه على إقامتها بتلك الصورة الاستفزازية، مما جعل فرنسا تختصرها من ستة أشهر إلى شهرين فقط، وقد كانت هذه الاحتفالات الاستفزازية عاملاً قوياً في سرعة إخراج فكرة تكوين جمعية العلماء من حيز الأمان إلى حيز الوجود الفعلي".¹

وبالفعل ففي العام التالي مباشرة وقبل أن ينقضي عام واحد على الاحتفالات، تم تكوين جمعية العلماء المسلمين الجزائريين من صفوف من علماء الجزائر: "هؤلاء العلماء كلهم أو جلهم ممن له ماضي حافل في خدمة الثقافة العربية والدعوة الإصلاحية ومقاومة مشاريع الاحتلال ضد الشخصية الوطنية للشعب الجزائري مثل الشيخ عبد الحميد بن باديس، الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، الشيخ الطيب العقبي، الشيخ العربي التبسي، الشيخ مبارك الميلي، وهكذا برزت جمعية العلماء إلى الوجود رسمياً في الخامس من شهر ماي سنة 1931".² ومنذ تأسيسها عملت على مواجهة المشروع الاستعماري، وذلك من خلال التركيز على الجانب العقدي والتربوي والاجتماعي والسياسي.

لقد كانت الجزائر في عهد الاحتلال في أمس الحاجة إلى مجددين ومصلحين، يجددون الدين والعقيدة، يجديدا يخلص مواطن الانحراف والفساد والضلال، وإحياء منهج خاتم الأنبياء في الدعوة إلى الإيمان بالمفهوم القرآني، ولعل أهم محور استقطب جهود علماء الجمعية في تلك المرحلة التاريخية كان محور إصلاح فهم العقيدة الإسلامية على اعتبار أن هذا الإصلاح هو المدخل الضروري لإصلاح المجتمع عموماً.

1 - محاربة البدع والخرافات

لا يوجد في جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ممن لم يحارب البدع والخرافات، لقد كان: "جهد علماء الجمعية مضاعفاً في إحياء السنة من جهة وإماتة بدعة من جهة أخرى. والأمثلة كثيرة جداً من ابن باديس إلى الإبراهيمي إلى مبارك الميلي إلى العربي التبسي إلى الشيخ حماني، فمنتوج الجمعية الفكري في محاربة البدع كبير وكبير تمثل في كتب وخطب ودروس ومقالات ومنشورات في الصحف وأشعار وردود ومطالبات وغيرها"³

لقد حاولت جمعية العلماء أن تبين العقائد الصحيحة من العقائد الباطلة: "فصححوا عقائدكم في الله، واعلموا أنه واحد أحد، فرد صمد، لا شريك له في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله، هو المتفرد بالخلق والرزق والإعطاء، والمنع والضر والنفع، فأخلصوا له الدعاء والعبادة ولا تدعوا معه أحداً ولا من دونه أحداً، وطهروا أنفسكم وعقولكم من هذه العقائد الباطلة الرائجة بين المسلمين اليوم، فإنها أهلكتهم وأضلتهم عن سواء السبيل، وإياكم البدع في الدين فإنها مفسدة له، وكل ما خالف السنة الثابتة عن نبينا ﷺ فهو بدعة".⁴

أما بالنسبة لكتاب "رسالة الشرك ومظاهره" لمبارك الميلي، فهو من أبرز الكتب التي كانت بمثابة رد على كل البدع، يقول الشيخ مبارك الميلي: «الحق والباطل، والإيمان والكفر، والسنة والبدعة، والهدى والضلالة، والخير والشر، كل أولئك في البشر قديم لا يختص بعصر ولا مصر، وإنما يمتاز أحد الأزمنة أو بعض الأمكنة بغلبة أحد المتقابلين على الآخر، لأن لكل جهة دعاة إليها يدعون، وهداة بما يهدون وأنصاراً لها يحمون ﴿كل حزب بما لديهم فرحون﴾ المؤمنون 53، ﴿ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم﴾ هود 118 - 119. هذا عصره ﷺ أزهى العصور، وهذه مدينته أكرم المدن، لم يخلوا من المنافقين أخط أصناف المبطلين»⁵

2 - محاربة الزوايا والطرقية المنحرفة

لقد سيطرت الزوايا والطرقية المنحرفة سيطرة تامة قبل تأسيس جمعية العلماء: "فساد الظلام، وخيم الجمود، وكثرت البدع، واستسلم الناس للقدر، وأصبحوا إذا سئل أحدهم عن حاله أجاب: «نأكل القوت ونستنى في الموت» وهذه الظاهرة الاجتماعية أدت إلى تعطيل الفكر وشل جميع الطاقات الاجتماعية الأخرى".⁶

لهذا حاولت أن تبين جمعية العلماء منذ تأسيسها حقيقة هذه الزوايا والطرقية المنحرفة عن العقيدة الصحيحة: «ما إن سطع نور الفكرة الإصلاحية حتى تحطم ذلك المعبد، فخرت الأوثان مع أسف عماتنا وخالاتنا اللاتي أدهشهن ما رأين. وبالفعل فقد خمدت نيران أهل الزردة (الفتنة)، وزالت عن البلاد حمى الدراويش، وتخلصت منها الجماهير بعد أن ظلت طوال خمسة قرون ترقص على دقات البنادير، وتبتلع العقارب والمسامير مع الخرافات والأوهام».⁷

فالطرقية والزوايا المبتدعة في الإسلام هي سبب تفرق المسلمين، بل هي السبب الأكبر في ضلالهم في الدين والدنيا: «وحين نقاومها نقاوم كل شر، وإننا حين نقضي عليها نقضي على كل باطل ومنكر وضلال. ونعلم زيادة على ذلك أنه لا يتم في الأمة الجزائرية إصلاح في أي فرع من فروع الحياة مع وجود هذه الطرقية المشؤومة ومع ما لها من سلطان على الأرواح والأبدان ومع ما فيها من إفساد للعقول وقتل للمواهب».⁸

واستطاعت جمعية العلماء أن تبين حقيقة هذه الزوايا، وأن توضح طريق الحق: «وأقمنا على أنقاضها بناء الحق، بدأنا ذلك كله بإزالة هيبتها الباطلة من الصدور، ومحو سلطتها الكاذبة من النفوس، ثم كشفنا عن نسبتها المزورة إلى الدين الحنيف. فما تم لنا ذلك حتى انحارت من أساسها، وتلك عاقبة كل بناء بني على الوهم والتزوير. وقد أحيانا الله حتى شهدنا جنازتها بلا ردة، وهلنا عليها التراب بأيدينا غير آسفين».⁹

ثانياً: الخطاب التربوي

في الحقيقة أن سياسة الاستعمار الفرنسي فيما يتعلق من الناحية التربوية كانت ترمي إلى تكوين مجتمع منفصل عن مقومات الشخصية الإسلامية العربية وإلى: «تحويل الشعب الجزائري كله وإدماجه في الحضارة الأوروبية والثقافة الفرنسية عن طريق نشر اللغة الفرنسية ومقاومة الشريعة الإسلامية التي ترى أنها هي العقبة الوحيدة التي تحول دون الاندماج، ولذلك فإنها تشترط فيمن يتمتع بالحقوق الفرنسية أن يتجنس، ويتضمن التجنيس عدم الارتباط بالقانون الإسلامي».¹⁰

لهذا اتخذ ابن باديس التربية وسيلة للإصلاح الثقافي والاجتماعي والسياسي، لأن الأهداف التربوية عنده تشمل ذلك كله، يقول ابن باديس: «إن الذي نوجه إليه الاهتمام الأعظم في تربية أنفسنا وتربية غيرنا هو تصحيح العقائد وتقويم الأخلاق، فالباطن أساس الظاهر، وفي الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسد فسد الجسد كله».¹¹

1 - أهمية التعليم:

أدرك الإمام ابن باديس أهمية العلم والتعليم بالنسبة للمسلمين عامة وللأمة الجزائرية خاصة، وذلك راجع لكون أن الجزائر قد: «حورت في دينها ولغتها وشخصيتها خاصة، فوجه جل اهتمامه لنشره، ذلك لأن العلم الصحيح المبني على العقيدة السليمة، هو وحده السبيل إلى سعادة الإنسان في الدنيا والآخرة. ويرى ابن باديس أن البشرية بدون علم تعود إلى حيوانيتها».¹²

2 - إصلاح التعليم

اعتبرت جمعية العلماء أن صلاح المسلمين من صلاح علمائها، فالعلماء من الأمة بمثابة القلب إذا صلح صلح الجسد كله وإذا فسد فسد الجسد كله، يقول الشيخ ابن باديس: «إذا أردنا إصلاح المسلمين فلنصلح علماءهم. ولن يصلح العلماء إلا إذا صلح تعليمهم، فالتعليم هو الذي يطبع المتعلم بالطابع الذي يكون عليه في مستقبل حياته، فإذا أردنا أن نصلح العلماء فلنصلح التعليم»¹³.

وإصلاح التعليم يكون من خلال ابتعاده عن السياسة والنظرة الحزبية الضيقة، فالتعليم عند الأمم يعتبر من المقومات الأساسية، يقول الشيخ الإبراهيمي: «قد تختلف الأحزاب عند تلك الأمم في فكرة سياسية وترتفع حرارة الخلاف إلى درجة الغليان، ولكن محال أن يصل الخلاف أو تمتد أسبابه إلى قدس التعليم ومدارسه ورجاله ونظمه وبرامجه ووسائله، محال ذلك لأن التعليم عندهم فوق الأحزاب وفوق الحزبية وأشرف منهما، ولأنه رأس مال الأمة وذخيرة الوطن، وهما مقدسان عند الأحزاب التي تحترم أمهما وأوطانها»¹⁴.

3 - أركان التعليم: تتمثل أركان التعليم في المعلم، الطالب، المادة العلمية، الطريقة

- المعلم: يعتبر المعلم في نظر الشيخ ابن باديس مصلحا، وهو لذلك لا يمكن أن تثمر جهوده إلا إذا كان هو نفسه: «قوي الإيمان بأفكاره، حريصا على تأصيلها في نفوس مريديه عن طريق السلوك العملي قبل الإتيان عليها من الجانب النظري، جاهدا نفسه على أن يشمل برسائله التربوية الوسط الاجتماعي، فيكون بذلك النموذج الأمثل لطلابه والقوة الحسنة لدى أفراد مجتمعه»¹⁵.

كما أشاد الشيخ البشير الإبراهيمي بمكانة المعلمين، مخاطبا إياهم: «إنكم تجلسون من كرسي التعليم على عروش ممالك، رعاياها أطفال الأمة، فسوسوهم بالرفق والإحسان، وتدرجوا بهم من مرحلة كاملة في التربية إلى مرحلة أكمل، إنهم أمانة الله عندكم، وودائع الأمة بين أيديكم، سلمتهم إليكم أطفالا، لتردهم إليها رجالا، وقدمتهم إليكم هياكل لتنفخوا فيها الروح، وألفاظا لتعمروها بالمعاني، وأوعية لتملأوها بالفضيلة والمعرفة»¹⁶.

بالإضافة إلى تذكير الإبراهيمي للمعلمين بقيمتهم كرامة وبناءة: «إنكم رعاة، وإنكم مسؤولون عن رعييتكم، وإنكم بناءة، وإن الباني مسؤول عما يقع في البناء من زيغ أو انحراف، وواجب المربي الحاذق المخلص، إذا أراد أن يصل إلى نفوس الأطفال أن يحملهم على طاعته وامتنال أمره بأسهل وسيلة، هو أن يتحجب إليهم، ويقابلهم بوجه متهمل ويبادلهم التحية بأحسن منها، ويسألهم عن أحوالهم باهتمام ويضاحكهم ويحادثهم بلطف وبشاشة... فإذا أحبوه أطاعوه وامتنلوا أمره، وإذا أطاعوا أمره وصل من توجيههم في الصالحات إلى ما يريد، وتمكن من حملهم على الاستقامة وطبعهم على الخير والفضيلة، فإذا ملك نفوسهم بهذه الطريقة حبيب إليهم المدرسة والقراءة والعلم. وإن الصغير لا يفلح في التربية ولا ينجح في القراءة، إلا إذا أحب معلمه كحبه لأبويه أو أعظم، وأحب المدرسة كحبه لبيت أبويه أو أشد»¹⁷.

- الطالب: أراد الشيخ البشير الإبراهيمي أن يبين أن الحياة قسمان: حياة علمية وحياة عملية، وأن الثانية تبنى على الأولى قوة وضعفا، حيث يقول موجها كلامه للطلبة: «إنكم لا تكونون أقوياء في العمل إلا إذا كنتم أقوياء في العلم، ولا تكونون أقوياء في العلم إلا إذا انقطعتم له، ووقفتم عليه الوقت كله. لا تعتمدوا على حلق الدروس وحدها، واعتمدوا معها على حلق المذاكرة، إن المذاكرة لقاح العلم، فاشغلوا أوقاتكم حين تخرجون من الدرس بالمذاكرة في ذلك الدرس، إنكم أن تفعلوا تفتح لكم أبواب من العلم، وآفاق واسعة من الفهم»¹⁸.

- المادة العلمية: يتميز التعليم الذي نهض به ابن باديس في الجزائر بأنه ذو طابع ديني ولغوي في الغالب يقوم على دراسة العلوم الشرعية والعلوم التي لها صلة بها، ثم على الأدب العربي شعرا ونثرا وفنون اللغة العربية مع شيء من التاريخ والجغرافيا والرياضيات. ولقد كان الدافع الذي دفع ابن باديس إلى العمل على نشر التعليم العربي الإسلامي بين أبناء الجزائر هو شعوره: «بضرورة العمل على تدارك الحالة الخطيرة التي وصلت إليها اللغة العربية والدين الإسلامي في الجزائر، ولذلك رأى إنقاذ الشخصية الجزائرية التي تقوم في رأيه على ثلاثة أركان هي: الإسلام والعروبة والجزائر من عوامل التدهور والانحلال والمحافظة عليها من الطعنات التي توجه إليها من الاستعمار ورجال التبشير المسيحي المتعاونين معه»¹⁹.

- الطريقة: لا يختلف تصور ابن باديس للمنهج، عن ما تنادي به التربية الحديثة، ولذلك فهو في مناهجه الدراسية يراعي أساسين تربويين: «فهو من ناحية يطلب من المعلم ضرورة مراعاة مدارك التلميذ وقواه العقلية ودرجة استعدادة للتعليم ومراحل نموه في مختلف أطوار حياته، ويؤكد عليه بأنه في حاجة إلى معرفة أساليب التفهيم، وفهم نفسية المتعلمين، وهو من ناحية أخرى يراعي التراث الثقافي والحضاري للمجتمع الجزائري العربي المسلم ويعمل على المحافظة عليه عن طريق نقله إلى الأجيال الصاعدة من أبنائه بواسطة حركة التربية والتعليم التي نهض بها منذ عام 1913 إذ لا بقاء في رأيه للإسلام في الجزائر إلا ببقاء علومه، ولا بقاء لعلومه إلا بوجود من يتعلمها ويعلمه»²⁰.

ثالثا: الخطاب الاجتماعي

لقد كان المجتمع الجزائري في عهد الاحتلال الفرنسي، يميزه التخلف الشامل في كافة مرافق الحياة، حيث كان يعاني الكثير من الآفات الاجتماعية التي أسهم الاحتلال في استغلالها وانتشارها في حياة الجزائريين، وقد سعت جمعية العلماء في إطار عملها الإصلاحي إلى محاربة هذه الآفات والحد من انتشارها.

1 - محاربة الانحراف الأخلاقي

لقد وجه ابن باديس عنايته لإصلاح أخلاق الجزائريين التي تدهورت تدهورا كبيرا نتيجة لفساد العقول وفساد العقيدة الدينية، وكان يرى أن التربية الأخلاقية الفاضلة في الأسرة ثم المدرسة والمجتمع هي التي تجنب النشأ الانحراف الأخلاقي، لأن الشخص الذي لا يستطيع أن يكبح جماح نفسه وشهوته في سبيل مرضات ربه أو مصلحة وطنه، لا يمكن أن يثق به على مصالح الأمة والوطن. لهذا كان ابن باديس: «يعمل على المحافظة على التراث العربي الإسلامي في الجزائر، ويعمل بكل إمكانياته على نشره بين أبناء وبنات الجزائر، حتى لا تنحرف أخلاقهم عن الجادة القويمة، لأن المحافظة على هذا التراث هو الذي يحفظ الشخصية الجزائرية من الانهيار»²¹.

كما أن هذا الدين قام على مفهوم النظافة بشكل عام: « بني هذا الدين الشريف على النظافة: نظافة النفس من الرذائل، نظافة العقول من الضلال والوهم والباطل، نظافة الأعمال من الشرور والمفاسد، نظافة الأبدان من الأوساخ، نظافة المنازل من العفونات، نظافة أفنية المساكن وساحاتها من الأزبال والقاذورات». ²²

2 - تعزيز الوحدة الوطنية

كان من جملة أهداف السياسة الفرنسية في الجزائر بث الخلاف والشقاق بين أبناء الجزائر حتى لا تجتمع لهم كلمة، ولا يتوحد لهم صف، ولا تقوم بينهم رابطة وطنية قوية تدفعهم إلى الثورة على المستعمر الذي يحتل بلادهم، ومن هذا القبيل: « ادعاء فرنسا بأن الجزائر يسكنها شعبان مختلفان تمام الاختلاف هما : العرب والأمازيغ، ثم ادعت بأن الأمازيغ يتمتعون بأصلهم الجنسي إلى أوروبا، وقد عملت منذ البداية على فصل المناطق التي يسكنها الأمازيغ في الجزائر عن بقية القطر، وحاولت فرنسة وتنصير سكانها وادماجهم في الكتلة الكاثوليكية الأوروبية متعاونة في تحقيق هذا الهدف مع جماعات المبشرين، بل تمادت في عملية بث الخلاف والشقاق حتى بين الأمازيغ أنفسهم حيث قسمتهم إلى قبائل وشاوية وميزابيين وطوارق». ²³

كتب ابن باديس منددا بأحد دعاة التفرقة ومدافعا عن الوحدة القومية للشعب الجزائري تحت عنوان (ما جمعته يد الله لا تفرقه يد الشيطان) يقول: « إن أبناء يعرب وأبناء أمازيغ (البربر) قد جمع بينهم الإسلام منذ بضع عشرة قرنا، ثم دأبت تلك القرون ترمج ما بينهم في الشدة والرخاء، وتؤلف بينهم في العسر واليسر، وتوحدتهم في السراء والضراء، حتى كونت منهم منذ أحقاب بعيدة عنصرا مسلما جزائريا أمه الجزائر وأبوه الإسلام». ²⁴

رابعا: الخطاب السياسي

كثيرا ما تمثلت الاهتمامات السياسية لدى جمعية العلماء في شكل رسائل مشفرة يتضمنها الخطاب الديني أو التربوي أو الاجتماعي، فجعل الأدبيات لا تكاد تخلو من عبارات الوطنية والهوية والتاريخ والحرية تمجيدا أو تخليدا، كما لا تخلو من عبارات الاستعمار والظلم والتسلط والإذلال. فجاءت جمعية العلماء لكي: « تدافع عن الذاتية الجزائرية، وتعمل لإحياء اللغة العربية وآدابها وتاريخها، وتعمل لتوحيد كلمة المسلمين في الدين والدنيا، وتعمل لتمكين أخوة الإسلام العامة بين المسلمين كلهم، وتذكر المسلمين الذين يبلغهم صوحتهم بحقائق دينهم وسير أعلامهم وأجدادهم وتاريخهم، وتعمل لتقوية روابط العروبة بين العربي والعربي. فإذا كانت هذه الأعمال تعد في فهمك ونظرك سياسة، فنحن سياسيون في العلانية لا في السر، وبالصرحة لا بالجمجمة». ²⁵

1 - بث روح الوطنية:

شكلت الجزائر الهاجس الأكبر لفكر جمعية العلماء، لما أضحت تعانيه من ويلات الاستعمار ومحاولاته لطمس معالم شخصية الأمة الجزائرية، فما كان من هؤلاء العلماء إلا البحث في الواقع الجزائري محاولين كشف مخططات المستعمر والتصدي لها هذا من جهة ، ومن جهة أخرى استعادة الشخصية الوطنية للجزائر. لقد: « لا حظ الفرنسيون أن العلماء قد أدخلوا " بيداغوجية وطنية " جديدة في حملتهم التعليمية، فابن باديس قد استعمل هذه الطريقة الجديدة في محاضراته في الجامع الأخضر، لكي يعد طلابه لمسؤولياتهم الوطنية، فقد علمهم " المحفوظات العربية " و " الأناشيد الوطنية " وكان الطلاب يحفظون ذلك وينشدونه في المناسبات الاجتماعية والدينية، مثيرين بذلك روح الوطنية والتضامن الإسلامي والحرية». ²⁶

ومن المساهمات الهامة التي قام بها العلماء خلال العشرينات خلق وبعث التاريخ الوطني، فيفضلهم نشر الماضي الجزائري وعرفه الطلاب، وكانوا يدعون الجزائريين إلى اليقظة من سباتهم الطويل، وفي هذا الصدد فإن: « ظهور مبارك الملي كآول مؤرخ جزائري حديث لم يكن محل استغراب، قد حاول أن يعيد كتابة تاريخ الجزائر على أساس وطني من خلال كتابه " تاريخ الجزائر في القدم والحديث " ، وباعتبار الملي عضوا من العلماء، فقد ركز على فكري الإصلاح والوطنية في تاريخه. وقد تأسف على أن الجزائريين في وقته كانوا يجهلون كل شيء عن تاريخهم، بينما كانوا يعرفون الكثير عن تاريخ البلاد الأجنبية». ²⁷

وكان الوطن عند ابن باديس من أهم المفاهيم قربا إلى وجدانه وقد اتخذ شعارا لجلته "المنتقد" (الحق فوق كل أحد والوطن فوق كل شيء) وتحمله في رأس كل عدد منها، وكان ذلك في: « أيام كانت كلمة الوطن والوطنية كلمة إجرامية لا يستطيع أحد أن ينطق بها، وقليل جدا من يشعر بمعناها، وإن كان ذلك المعنى دفيناً في كوامن النفوس ككل غريزة من غرائزها، لا سيما في أمة تنسب إلى العروبة وتدين بالإسلام مثل الأمة الجزائرية ذات التاريخ المجيد». ²⁸

2 - رفض سياسة الاندماج:

وقفت جمعية العلماء ضد سياسة الاندماج، وكان لموقفها صدى واسع وعواقب كبيرة لصالح الحركة الوطنية، فعندما نفى فرحات عباس وجود أمة جزائرية، أجابه ابن باديس بعبارات زعزعت من كانوا يعتقدون أن هذه الأمة قد اندثرت فعلا، وبنوا على ذلك أوهام الاندماج في أمة أخرى: « ثم إن هذه الأمة الجزائرية الإسلامية ليست هي فرنسا ولا يمكن أن تكون فرنسا، ولا تريد أن تصبح فرنسا، ولا تستطيع أن تصبح فرنسا ولو أرادت، بل هي بعيدة عن فرنسا كل البعد، في لغتها وفي أخلاقها وفي عنصرها وفي دينها، وهي لا تريد أن تندمج». ²⁹

3 - مساندة الثورة التحريرية:

مع اندلاع الثورة وجه الفضيل الورتلاني بيانا في 3 نوفمبر 1954 بالقاهرة: « إلى الثائرين الأبطال من أبناء الجزائر: اليوم حياة أو موت، بقاء أو فناء، حياكم الله أيها الثائرون الأبطال، وبارك في جهادكم، وأمدكم بنصره وتوفيقه، وكتب ميتكم في الشهداء الأبرار، وحياكم في عبادته الأحرار... اعلموا أن الجهاد للخلاص من هذا الاستعباد، قد أصبح اليوم واجبا عاما مقدسا، فرضه عليكم دينكم، وفرضته قوميتكم، وفرضته رجولتكم، وفرضه ظلم الاستعمار العاشم الذي شملكم، ثم فرضته أخيرا مصلحة بقائكم، لأنكم اليوم أمام أمرين: إما حياة أو موت، إما بقاء كريم أو فناء شريف». ³⁰

كما حرر كل من الإمام محمد البشير الإبراهيمي رئيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين والشيخ الفضيل الورتلاني بيانا تاريخيا، وكان ذلك في 15 نوفمبر 1954م بالقاهرة، يحرض فيه الشعب الجزائري على الانضمام إلى صفوف المجاهدين ، ويحذره من مغبة خذلان قضيته التي فيها شرفه وعزه وكرامته، لأن خذلان جهاد التحرير معناه

الفناء وعندئذ يكون بطن الأرض خير من ظهرها: «أيها الإخوة الأحرار هلموا إلى الكفاح المسلح، إننا كلما ذكرنا ما فعلت فرنسا بالدين الإسلامي في الجزائر، وذكرنا فظائعها في معاملة المسلمين، لا شيء إلا لأفهم مسلمون، كلما ذكرنا ذلك احتقرنا أنفسنا واحتقرنا المسلمين، وخجلنا من الله أن يرانا ويراهم مقصرين في الجهاد لإعلاء كلمته، وكلما استعرضنا الواجبات وجدنا أوجبها وألزمها في أعناقنا، إنما هو الكفاح المسلح فهو الذي يسقط علينا الواجب، ويدفع عنا وعن ديننا العار، فسيروا على بركة الله، ويعونه وتوفيقه إلى ميدان الكفاح المسلح، فهو السبيل الواحد إلى إحدى الحسينين، إما موت وراءه جنة، وإما حياة وراءها العزة والكرامة»³¹.

خاتمة:

- من خلال دراستنا للخطاب الإصلاحي من منظور جمعية العلماء المسلمين الجزائريين يمكن أن نخرج بنتائج من أبرزها:
- الاستعمار الفرنسي كان بمثابة استعمار المسخ والفسخ للهوية، فهذا الأخير هدم المساجد وأغلق المدارس ودور العلم، وصادر الأوقاف، ولم يبق للشعب الجزائري سوى الأمية والجهل والبطالة والأوبئة.
 - نشأت جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في ظروف خاصة، وأخذت على عاتقها مسؤولية النهوض بالإنسان الجزائري بأبعاده اللغوية والدينية والحضارية، ولا يتم ذلك إلا بالعلم والوعي.
 - سعت جمعية العلماء إلى انتشارال الشعب الجزائري من الجهل والأمية والأوبئة، لأنها أدركت أن شعبا جاهلا جائعا مريضا مشتتا لا يمكن أن يفهم معنى الحرية أو يفكر في الاستقلال.
 - ساهمت جمعية العلماء في كل نشاط يؤدي إلى إدراك الجزائريين لوجودهم كأمة متميزة وكيان مستقل في وجه دعوة التفرنس والاندماج.

الهوامش:

- ¹ تركي رايح، الشيخ عبد الحميد بن باديس رائد الاصلاح والتربية في الجزائر، ط3، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1981، ص 66.
- ² المرجع نفسه، ص 67.
- ³ عقيلة حسين، جهود جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في خدمة الحديث الشريف، ط1، دار الوعي، الجزائر، 2012، ص 269.
- ⁴ محمد البشير الإبراهيمي، آثار محمد البشير الإبراهيمي، جمع وتقديم: أحمد طالب الإبراهيمي، الجزء الأول، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1997، ص 406.
- ⁵ مبارك بن محمد الميلي، رسالة الشرك ومظاهره، تحقيق وتعليق: أبي عبدالرحمان محمود، ط1، دار الراية للنشر والتوزيع، الرياض، 2001، ص 415.
- ⁶ عبد الحميد بن باديس، آثار ابن باديس، اعداد وتصنيف: عمار طالي، المجلد الأول، الجزء الأول، الطبعة الثالثة، الشركة الجزائرية، الجزائر، 1997، ص 18.
- ⁷ مالك بن نبي، شروط النهضة، ترجمة: عمر كامل مسقاوي وعبد الصبور شاهين، ط4، دار الفكر، دمشق، 1987، ص 28.
- ⁸ محمد البشير الإبراهيمي، الطرق الصوفية، ط1، مكتبة الرضوان، الجزائر، 2008، ص 52.
- ⁹ محمد البشير الإبراهيمي، آثار محمد البشير الإبراهيمي، جمع وتقديم: أحمد طالب الإبراهيمي، الجزء الأول، ص 407.
- ¹⁰ عبد الحميد بن باديس، آثار ابن باديس، اعداد وتصنيف: عمار طالي، المجلد الأول، الجزء الأول، ص 49.
- ¹¹ عبد الحميد بن باديس، تفسير ابن باديس في مجالس التذكير من كلام الحكم الخبير، جمع وترتيب: محمد شاهين، محمد الصالح رمضان، ط2، دار الكتب العلمية، بيروت، 2003، ص 150.
- ¹² مصطفى محمد حميداتو، عبد الحميد بن باديس وجهوده التربوية، ط1، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الدوحة، 1997، ص 109.
- ¹³ عبد الحميد بن باديس، آثار ابن باديس، اعداد وتصنيف: عمار طالي، المجلد الثاني، الجزء الأول، الطبعة الثالثة، الشركة الجزائرية، الجزائر، 1997، ص 217.
- ¹⁴ محمد البشير الإبراهيمي، آثار محمد البشير الإبراهيمي، جمع وتقديم: أحمد طالب الإبراهيمي، ج2، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1997، ص 237.
- ¹⁵ محمد بن سمينة، المشروع التربوي الباديسي، جريدة البصائر، العدد: 147، الاثنين 08 - 15 ربيع الثاني 1424 هـ / 09 - 16 جوان 2003، ص 15.
- ¹⁶ محمد البشير الإبراهيمي، آثار محمد البشير الإبراهيمي، جمع وتقديم: أحمد طالب الإبراهيمي، ج2، ص 112.
- ¹⁷ المصدر نفسه، ص 112، 113.
- ¹⁸ محمد البشير الإبراهيمي، آثار محمد البشير الإبراهيمي، جمع وتقديم: أحمد طالب الإبراهيمي، الجزء الثالث، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1997، ص 203.
- ¹⁹ تركي رايح، الشيخ عبد الحميد بن باديس رائد الاصلاح والتربية في الجزائر، ص 301.
- ²⁰ المرجع نفسه، ص 302، 303.
- ²¹ تركي رايح، ابن باديس ونشأة الحركة الإصلاحية في الجزائر، مجلة الأصالة، السنة الرابعة، العدد: 24، مارس - أفريل 1975، وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية، الجزائر، ص 89.
- ²² الصراط السوي، العدد: 10، الاثنين 2 شعبان 1352 هـ الموافق ل: 22 نوفمبر 1933، ص 01.
- ²³ تركي رايح، الشيخ عبد الحميد بن باديس رائد الاصلاح والتربية في الجزائر، ص 269.
- ²⁴ المرجع نفسه، ص 270.
- ²⁵ محمد البشير الإبراهيمي، آثار محمد البشير الإبراهيمي، جمع وتقديم: أحمد طالب الإبراهيمي، الجزء الثالث، ص 62.
- ²⁶ أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية، ج2، ط4، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1992، ص 400.
- ²⁷ المرجع نفسه، ص 401، 402.
- ²⁸ محمد الميلي، ابن باديس وعروبة الجزائر، وزارة الثقافة، الجزائر، 2007، ص 174.
- ²⁹ أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، الجزء السادس، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1998، ص 372.

قائمة المصادر والمراجع:

أولاً: قائمة المصادر

1. عبد الحميد بن باديس، آثار ابن باديس، اعداد وتصنيف: عمار طالبي، المجلد الأول، الجزء الأول، الطبعة الثالثة، الشركة الجزائرية، الجزائر، 1997 .
2. عبد الحميد بن باديس، آثار ابن باديس، اعداد وتصنيف: عمار طالبي، المجلد الثاني، الجزء الأول، الطبعة الثالثة، الشركة الجزائرية، الجزائر، 1997 .
3. عبد الحميد بن باديس، تفسير ابن باديس في مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، جمع وترتيب: محمد شهاب، محمد الصالح رمضان، ط 2 ، دار الكتب العلمية، بيروت، 2003.
4. محمد البشير الإبراهيمي، آثار محمد البشير الإبراهيمي، جمع وتقديم: أحمد طالب الإبراهيمي، الجزء الأول، ط 1 ، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1997.
5. محمد البشير الإبراهيمي، آثار محمد البشير الإبراهيمي، جمع وتقديم: أحمد طالب الإبراهيمي، الجزء الثاني، ط 1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1997.
6. محمد البشير الإبراهيمي، آثار محمد البشير الإبراهيمي، جمع وتقديم: أحمد طالب الإبراهيمي، الجزء الثالث، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1997.
7. محمد البشير الإبراهيمي، آثار محمد البشير الإبراهيمي، جمع وتقديم: أحمد طالب الإبراهيمي، الجزء الخامس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1997.
8. محمد البشير الإبراهيمي، الطرق الصوفية، ط 1 ، مكتبة الرضوان، الجزائر، 2008
9. مبارك بن محمد الملي، رسالة الشرك ومظاهره، تحقيق وتعليق: أبي عبد الرحمان محمود، ط 1، دار الراجية للنشر والتوزيع، الرياض، 2001 .
10. الفضيل الورتلاني، الجزائر الثائرة، ط 4 ، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، 2007 .

ثانياً: قائمة المراجع

1. تركي رايح، الشيخ عبد الحميد بن باديس رائد الاصلاح والتربية في الجزائر، ط 3 ، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1981 .
2. عقيلة حسين، جهود جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في خدمة الحديث الشريف، ط 1، دار الوعي، الجزائر، 2012.
3. مالك بن نبي، شروط النهضة، ترجمة: عمر كامل مسقاوي وعبد الصبور شاهين، ط 4، دار الفكر، دمشق، 1987.
4. مصطفى محمد حميداتو، عبد الحميد بن باديس وجهوده التربوية، ط 1، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الدوحة، 1997.
5. أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية، ج 2 ، ط 4 ، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1992 .
6. محمد الملي، ابن باديس وعروية الجزائر، وزارة الثقافة، الجزائر، 2007 .
7. أبو القاسم سعد الله ، تاريخ الجزائر الثقافي، الجزء السادس، ط 1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1998 .

ثالثاً: الجرائد والمجلات

1. جريدة البصائر، العدد: 147، الاثنين 08 - 15 ربيع الثاني 1424 هـ / 09 - 16 جوان 2003.
2. الصراط السوي، العدد: 10 ، الاثنين 2 شعبان 1352 هـ الموافق لـ : 22 نوفمبر 1933.
3. مجلة الأصالة، السنة الرابعة، ع: 24، مارس - أبريل 1975، وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية، الجزائر.